

## أدلة جواز الاجتماع على الذكر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد

إلى معالي وزير الأوقاف: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يا فضيلة الوزير لتسمح لي بأن أصارحك بما في خلجات نفسي وما أحمله في قلبي وأقول لك حينما علمنا بتوليك مقاليد وزارة الأوقاف أنلج الخبر صدورنا واطمأنت قلوبنا إذ أنك من أعلام الأزهر الشريف وأحد أبنائه الذين ارتشفوا من معين علومه الزكية وربيت عقولهم على مناهجه المنيفة من عقيدة ومذهبية وعلوم الأخلاق التي هي أركان منهج الأزهر ودعائه العريقة وأيقنا أنك ستعمل لنصرة الحق المبين وتصحيح مسيرة الدعوة لتكون على الصراط المستقيم الذي لا يعرف المحاملة ولا الانحياز لتيار أو اتجاه، وشأن أهل الحق هو الحق الذي أسس الله تعالى عليه دينه وأقام عليه شريعته ألا وهو كتاب الله المحفوظ وسنة نبيه المعصوم الذي علمنا وإياكم وجميع أمته إلى يوم القيامة أن لنا ولكم في الحق سعة، وأن الاجتهاد القائم على الدليل خير من اتباع الأهواء المضلة والآراء المزلّة للأقدام عن الصراط المستقيم.

فاسمح لي أن أقول لنا ولكم في الحق سعة وخاصة في قراركم الأخير بمنع تراخيص مجالس الذكر في المساجد وإني لا أرضى لكم الوقوع في الزلل الذي وقع فيه سلفكم زفوق وهو من هو اتجاهها وفكرا معروفا لذا أنصحكم من باب قول النبي: **(الدِّينُ النَّصِيحَةُ)**. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قال: **(لِلَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)**. أخرجه مسلم.

وإن كنت لا أساويكم علما فأنا من عامة المسلمين فهذه كلمات لنا ولسيادتكم تذكرة وأدلة هي لنا واضحة، وقبل أن أسوقها فإني لا أرضى لك بمشورة المتعصبين لمنهج ضد منهج من آراء المستشارين لفضيلتكم أو بعضهم فتكون ثمرة قبول آرائهم فتنة صماء عمياء لا يعلم نتائجها إلا الله من الفرقة وتشتيت للأمة، وأذكركم ونفسي بقول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل إذ يقول: **"الحديث الضعيف أحب إلى من آراء الرجال"**.

وإن قراركم السابق فيه من الظلم للنفس وللغير ما فيه خاصة إذا كان أصحاب هذا الاتجاه لهم من الأدلة ما لهم وشأن الاختلاف المحمود المتجرد من اتباع الهوى هو التسليم للمخالف إذا كان معه دليل يحتمل وجوها منها الوجه الذي عليه المخالف وهنا فلا حق لمخالفه في تجريحه أو تبديعه أو الحجر عليه وحسب القاعدة الفقهية: "الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب". فما بالك إذا في إجماع جمهور الفقهاء على اعتبار هذه الأدلة واعتمادها كما سيأتي بيان ذلك، فأقول وبالله التوفيق:

### معنى لفظ (الذكر) وعمومه:

إن لفظ (الذكر) من الألفاظ العامة التي أطلق الشارع معناها فتارة فُصِدَ بها القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9] وتارة فُصِدَ بها صلاة الجمعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) [الجمعة: 9]، وفي موطن آخر عُني بها العلم: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) [الأنبياء: 7]. وفي معظم النصوص أُريدَ بكلمة (الذكر): التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة على النبي وما إلى هنالك من الصيغ كأسماء الله تعالى... إلخ كما في قوله تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) [النساء: 102]، وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) [الأنفال: 45]، وقوله تعالى: (وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا) [المزمل: 8] فعلى هذه المعاني يخطئ من يحصر معناه في العلم ومجالسه فقط خاصة وأن كل هذه المعاني قد ذكرها العلي الأعلى سبحانه في كتابه الذي لا يتبع الأهواء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

### مجالس الذكر والأدلة عليها من الكتاب والسنة:

وقال تعالى: (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم) [آل عمران: 191] فعبر بصيغة الجمع لا الأفراد فدل هذا - وأنت أعلم - أن هذا المعنى يدخل فيه اجتماع المؤمنين على الذكر في جماعة كما أنه يدخل فيه الذكر الفردي، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الأحزاب: 41 - 42] وقال سبحانه أيضاً: (فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ

**فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** [النساء: 103]، وهذا دال على الذكر الجماعي أيضاً وقد كان هذا من هديه وسنته طيلة حياته وقد عطل هذه السنة المبطلون في المساجد اليوم بإصرارهم على الإسرار بالذكر دبر الصلاة المكتوبة وقد قامت على الجهر بالذكر بعد الصلاة المكتوبة الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن عمرو بن دينار أن أبا معبد مولى ابن عباس أخبره أن ابن عباس أخبره أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي وأنه قال: قال ابن عباس كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته.

يقول شيخ شيوخنا شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله في (الفتح) (2 / 325): وفيه دليل على جواز الجهر بالذكر عقب الصلاة. قال الطبري: فيه الإبانة عن صحة ما كان يفعله بعض الأمراء من التكبير عقب الصلاة. وتعبه ابن بطلان بأنه لم يقف على ذلك عن أحد من السلف إلا ما حكاه ابن حبيب في (الواضحة) أنهم كانوا يستحبون التكبير في العساكر عقب الصبح والعشاء تكبيراً عالياً ثلاثاً. قال: وهو قديم من شأن الناس. هـ

وليس لهم حجة إلا قول ينسب للشافعي قال النووي: حمل الشافعي هذا الحديث على أنهم جهروا به وقتا يسيرا لأجل تعليم صفة الذكر لا أنهم داوموا على الجهر به والمختار أن الإمام والمأموم يخفيان الذكر إلا إن احتجج إلى التعليم.

قلت: والحاجة إلى التعليم قائمة إلى يوم الدين خاصة في حق الأمي والصبي والتعليم بالسمع أسرع وأنجح وهذا ما لا ينكره أحد فما تعلمنا كيفية الذكر بعد الصلاة إلا في المساجد حين كان يجهر به المسلمون، فلنا الله في زمان علا فيه صوت المعطلين للسنن الذين صيروا السنة بدعة والبدعة سنة وألبسوا على الناس أمور دينهم فالمشتكى إلى الله وحده وهو حسنا ونعم الوكيل.

بل إني أخاف على سيادتكم من حمل هذا الإثم الذي توعد به الله تعالى من توعد - وأرجو ألا تغضب فما أنا إلا مذكر - في قوله تعالى **(ومن أظلم ممن ممنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه)** [البقرة: 114]، فما أقيمت المساجد إلا لعبادة الله تعالى وحده وتوحيده وذكره وإقامة شريعته وهذا ما نص عليه في كتابه في قوله تعالى: **(في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)**

[النور: 36] ومدح عباده الذاكرين فقال تعالى: **(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)** [النور: 37] فهم الحاضرون في حضرته المتمتعون بذكره حين غفل كثير من العباد عنه، وأمر بذلك صفوة عباده وأوليائه وحذر من مخالفة أمره فقال تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله)** [المنافقون: 9] وقال يبشرهم ويعدهم بالجزاء الأوفى **(والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيماً)** [الأحزاب: 35] قال ابن عباس: المراد: يذكرون الله في أدبار الصلوات، وغدواً وعشياً وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا أو راح من منزله، ذكر الله تعالى. [الفتوحات الربانية على الأذكار النووية] (106/1 - 109) وقال مجاهد: لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضجعاً. [الفتوحات الربانية على الأذكار النووية] فالذكر صقال القلوب، ومفتاح باب النفحات، وسبيل توجه التحليات على القلوب، وبه يحصل التحلق، لا بغيره. لذلك فالمريد لا يصيبه غم أو هم أو حزن إلا بسبب غفلته عن ذكر الله، ولو اشتغل بذكر الله لدام فرحه وقرت عينه، إذ الذكر مفتاح السرور والفرح، كما أن الغفلة مفتاح الحزن والكدر.

**وأما الأدلة على مشروعية الاجتماع على الذكر فهي لا تحصى وإني لأعجب من يغض الطرف عنها عامداً متعمداً ومنها:**

1 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: **(ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده)**. أخرجه مسلم دل الحديث على فضيلة مجالس الذكر والذاكرين وفضيلة الاجتماع على الذكر.

2 - أخرج البخاري: **(إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا)**. الحديث. وهذا من فضائل مجالس الذكر تحضرها الملائكة بعد التماسهم لها، والمراد بالذكر هو التسييح والتحميد وتلاوة القرآن ونحو ذلك وفي حديث البزار: أنه تعالى يسأل ملائكته ما يصنع العباد وهو أعلم بهم فيقولون: **(يعظمون آلاءك ويتلون كتابك ويصلون على نبيك ويسألونك لأحرتهم وديناهم)**. والقوم في مجالسهم لا يتعدون هذا الصنيع فلما الاعتراض عليهم؟!.

وقال الفخر الرازي: المراد بذكر اللسان الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد و الذكر بالقلب التفكير في أدلة الذات والصفات وفي أدلة التكليف من الأمر والنهي حتى يطلع على أحكامه وفي أسرار مخلوقات الله، والذكر بالجوارح هو أن تصير مستغرقة بالطاعات ومن ثم سمي الله الصلاة ذكرا في قوله: **(فاسعوا إلى ذكر الله)** وذكر بعض العارفين أن الذكر على سبعة أنحاء فذكر العينين بالبكاء وذكر الأذنين بالإصغاء وذكر اللسان بالثناء وذكر اليدين بالعطاء وذكر البدن بالفداء وذكر القلب بالخوف والرجاء وذكر الروح بالتسليم والرضاء.

3 - عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله: **(ليبعثن الله أقياما يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء)**. قال: فجننا أعرابي على ركبته فقال: يا رسول الله حلهم لنا نعرفهم. قال: **(هم المتحابون في الله من قبائل شتى وبلاد شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه)**. رواه الطبراني بإسناد حسن. أليس هذا من أدلة مشروعية الاجتماع على الذكر؟!

وجاء في سنة سيدنا الدليل الصريح الذي لا مرأى فيه ولا جدال على مشروعية حلق الذكر والحلقة هي اجتماع الناس على هيئة دائرة - أي حلقة - ومعناها في اللغة معروف غير منكر وهو هذا الحديث:

4 - أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: **خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ. قَالَ: اللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: (مَا أَجْلَسَكُمْ؟). قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: (اللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟). قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: (أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيْلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ).**

5 - أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: **(إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا)**. قلت: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: **(المساجد)**. قال: وما الرتع يا رسول الله؟ قال: **(سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)**. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

6 - أخرج أبو داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: (لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق رقبة).

7 - أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ما يقول عبادي. قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني. قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني. قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسييحاً. قال: فما يسألوني. قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها. قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها. قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة). يقول شيخ شيوخنا العلامة ابن حجر في (الفتح): (212/11) شارحاً لهذا الحديث: ويؤخذ من مجموع هذه الطرق المراد بمجالس الذكر وانها التي تشتمل على ذكر الله بأنواع الذكر الواردة من تسييح وتكبير وغيرها وعلى تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى وعلى الدعاء بخيري الدنيا والآخرة وفي دخول قراءة الحديث النبوي ومدارسة العلم الشرعي ومذاكرته والاجتماع على صلاة النافلة في هذه المجالس نظر والأشبه اختصاص ذلك بمجالس التسييح والتكبير ونحوهما والتلاوة فحسب وإن كانت قراءة الحديث ومدارسة العلم والمناظرة فيه من جملة ما يدخل تحت مسمى ذكر الله تعالى.

8 - وأخرج ابن حبان في (صحيحه) عن أبي سعيد عن رسول الله قال: (يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا سَيَعْلَمُ أَهْلَ الْجُمُعِ الْيَوْمَ مَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ. فَقِيلَ: مَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟. قَالَ: أَهْلُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ فِي الْمَسَاجِدِ).

9 - وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: كان رسول الله يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جُمْدَانُ فقال: (سيروا هذا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُقَرَّدُونَ). قيل: وما المُقَرَّدُونَ يا رسول الله؟ قال: (المستَهْتَرُونَ بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافاً).

والصوفية الحق هم من عناهم النبي بقوله ووصفه في هذا الحديث، بل قد جعل خلو الأرض منهم علامة على قرب الساعة وزوال الخير منها وهذا وصفهم ووصف حالهم وأفعالهم في حديثه عن أنسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **(لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ)**. ومن غيرهم يذكر الله بالاسم المفرد في العالم في الوقت الذي ذهب فيه المنتطعون إلى منعه حتى زعم منهم من زعم زوراً وبهتاناً وتدليساً أن الذكر بالاسم المفرد لا يقوم عليه دليل شرعي من سنة النبي حتى قال بلسانه زوراً وبهتاناً: إنه لم يرد في حديث صحيح ولا حسن ولا حتى موضوع الذكر بالاسم المفرد. ونسى سيادة العلامة هذا الحديث السابق بل إن صح القول فقد تناسى عمداً واتبع هواه هذا الحديث السابق الذكر وغيره من السنة التقريرية من سيدنا حين كان يمر على بلال وهو يعذب وكان ذكره: أحد أحد. وسيدنا يسمعه ولا ينهاه، بل قد تغافلوا عمداً عن كلام الله تعالى في هذا الأمر الذي أمر به الله تعالى خاصة عباده وأكرمهم إذ يقول سبحانه: **(وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)** [المزمل: 8] فأمره بالذكر لاسمه تعالى ومما يؤكد هذا المعنى أنه لم يقرن الأمر بالتسبيح كما أمره به في غير هذه كقوله تعالى: **(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)** [الأعلى: 1] أو: **(فسبح باسم ربك العظيم)** والأمر هنا ظاهر بأن يقول: سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي العظيم، فله در من علم وفهم مراد الله ولم يتبع هوى نفسه.

10 - وأخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن رسول الله قال: **(ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل لا يريدون بذلك إلا وجهه؛ إلا ناداهم منادٍ من السماء أن قوموا مغفوراً لكم فقد بُدلت سيئاتكم حسنات)**. وهذا صريح في مشروعية الاجتماع على ذكر الله سبحانه.

11 - وأخرج الحاكم وغيره عن شداد بن أوس قال: **إِنَّا لَعِنْدَ النَّبِيِّ إِذْ قَالَ: (ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). ففعلنا، فقال: (اللهم إِنَّكَ بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة، إنك لا تخلف الميعاد)**. ثم قال: **(أبشروا فإن الله قد غفر لكم)**. وهذا من فعله واجتماعه على الذكر في جماعة والجهر به وهذا ما يعده العلماء دليلاً على تلقين الذكر كما لقنهم سيدنا وهذا واضح في الحديث ولا مرأ فيه.

وإذا أردنا أن نستقصي الأدلة من سنة سيدنا لطلال بنا المقال وهناك أحاديث بلغت حدّ الكثرة، جمع منها العلامة الكبير جلال الدين السيوطي خمسة وعشرين حديثاً في رسالة سماها

(نتيجة الفكر في الجهر بالذكر) فقال: الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، سألت أكرمك الله عما اعتاده السادة الصوفية من عقد حلق الذكر، والجهر به في المساجد، ورفع الصوت بالتهليل وهل ذلك مكروه، أو لا؟.

الجواب: إنه لا كراهة في شيء من ذلك، وقد وردت أحاديث تقتضي استحباب الجهر بالذكر، وأحاديث تقتضي استحباب الإسرار به، والجمع بينهما أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، وها أنا أبين ذلك فصلاً فصلاً.

ثم ذكر الأحاديث الدالة على ذلك بكاملها ثم قال: إذا تأملت ما أوردنا من الأحاديث، عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر، بل فيه ما يدل على استحبابه؛ إما صريحاً أو التزاماً - كما أشرنا إليه، وأما معارضته بحديث (خير الذكر الخفي) فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث: (المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة)، وقد جمع النووي بينهما: بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء، أو تأذى به مصلون أو نيام، والجهر أفضل في غير ذلك؛ لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظ القارئ، ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط. وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن الميسر قد يملأ فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار. وكذلك نقول في الذكر على هذا التفصيل، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث. فإن قلت: قال الله تعالى: (وادكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ) [الأعراف: 205]. قلت: الجواب على هذه الآية من ثلاثة أوجه:

الأول: إنها مكية كآية الإسراء: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) [الإسراء: 110]. وقد نزلت حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهر بالقرآن، فيسمعه المشركون فيسبون القرآن ومن أنزله، فأمر بترك الجهر سداً للذريعة، كما نُهي عن سب الأصنام لذلك في قوله تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) [الأنعام: 108]. وقد زال هذا المعنى، وأشار إلى ذلك ابن كثير في تفسيره.



الثاني: إن جماعة من المفسرين - منهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم شيخ مالك، وابن جرير - حملوا الآية على الذاكر حال قراءة القرآن، وأنه أمر له بالذكر على هذه الصفة تعظيماً للقرآن أن ترفع عنه الأصوات، ويقويه اتصالها بقوله تعالى: **(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)** [الأعراف: 204]. قلت وكأنه لما أمر بالإنصات خشى من ذلك الإخلاد إلى البطالة، فنبه على أنه وإن كان مأموراً بالسكوت باللسان إلا أن تكليف الذكر بالقلب باقٍ حتى لا يغفل عن ذكر الله، ولذا ختم الآية بقوله: **(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)** [الأعراف: 205].

الثالث: ما ذكره الصوفية أن الأمر في الآية خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم الكامل المكمل، وأما غيره - ممن هو محل الوسوس والخواطر الرديئة - فمأمور بالجهر، لأنه أشد تأثيراً في دفعها. قلت: ويؤيده من الحديث ما أخرجه البزار عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من صلى منكم بالليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة تصلي بصلاته، وتسمع لقراءته، وإن مؤمناً من الجن الذين يكونون في الهواء، وجيرانه معه في مسكنه يصلون بصلاته، ويستمعون قراءته، وإنه يطرد بجهره بقراءته عن داره وعن الدور التي حوله فُسَّاق الجن ومردة الشياطين)**. فإن قلت: فقد قال تعالى: **(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)** [الأعراف: 55]. وقد فسر الاعتداء بالجهر في الدعاء. قلت: الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أن الراجح في تفسيره أنه تجاوز المأمور به، أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه، والحاكم في (مستدرکه) وصححه عن أبي نعامة رضي الله عنه: أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة. فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون بالدعاء)**. هذا تفسير صحابي، وهو أعلم بالمراد.

الثاني: على تقدير التسليم فالآية في الدعاء لا في الذكر، والدعاء بخصوصه؛ الأفضل فيه الإسرار، لأنه أقرب إلى الإجابة، ولذا قال تعالى: **(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)** [مريم: 3]. ومن ثمَّ

استحب الإسرار بالإستعادة في الصلاة اتفاقاً لأنها دعاء. فإن قلت: فقد نُقل عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه رأى قوماً يهللون برفع الصوت في المسجد فقال: ما أراكم إلا مبتدعين حتى أخرجهم من المسجد. قلت: هذا الأثر عن ابن مسعود يحتاج إلى بيان سنده، ومن أخرجهم من الأئمة الحفاظ في كتبهم، وعلى تقدير ثبوته فهو مُعارض بالأحاديث الكثيرة الثابتة المتقدمة، وهي مقدمة عليه عند التعارض، ثم رأيت ما يقتضي إنكار ذلك عن ابن مسعود، قال الإمام أحمد بن حنبل في كتاب (الزهد): حدثنا حسين بن محمد حدثنا المسعودي عن عامر بن شقيق عن أبي وائل قال: هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر، ما جالسْتُ عبدَ الله مجلساً إلا ذكَّرَ الله فيه.

وأخرج أحمد في (الزهد) عن ثابت البناني قال: إن أهلَ ذكرِ الله ليجلسون إلى ذكرِ الله وإن عليهم من الآثام أمثال الجبال، وإنهم ليقومون من ذكرِ الله تعالى ما عليهم منها شيء. انتهى من (الحاوي للفتاوي) في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون للعلامة الكبير جلال الدين السيوطي.

وقد جمع أيضاً العلامة اللكنوي رسالة في هذا الأمر وسماها: (سباحة الفكر في الجهر بالذكر) تفنن فيها وأجاد رحمه الله وأورد كل الشبه المعارضة والجواب عنها بالأدلة.

- ومن الأدلة أيضاً قول العلامة الألويسي في تفسيره (روح المعاني) (140/4) عند قوله تعالى: **(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)** [آل عمران: 191]: وعليه فيحمل ما حُكي عن ابن عمر رضي الله عنهما وعروة بن الزبير وجماعة رضي الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى، فجعلوا يذكرون الله تعالى، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: **(يذكرون الله قياماً وقعوداً)**؟ فقاموا يذكرون الله تعالى على أقدامهم، على أن مرادهم بذلك التبرك بنوع موافقة للآية في ضمن فرد من أفراد مدلولها.

- هذه أدلتنا على سبيل الذكر لا الحصر، وفيه كفاية لمن أراد الله له الهداية والله الهادي إلى الصراط المستقيم، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.